على ضفتى قناة السويس

١٠

معركة السويس

أكتوبر

« . . لقد اعتقدت القيادة الجنوبية أن احتلال السويس يمكن أن يتم دون تورط فى قتال عنيف . فقد كانت المدينة تبدو خالية . كما أنها بدت وكأنها لم تستعد لذلك . واليوم ، فإننى حزين لأنهم فرضوا على هذه المهمة ولم اعترض عليها والسبب بسيط : ذلك أننا لم نعد نتحمل سقوط قتلى آخرين . فقد كان نجاحنا فى هذه المهمة محدودا بينما كانت خسائرنا باهظة . . »

هكذا يختتم المؤلف فصله السابع والأخير عند حديثه عن معركة السويس . السويس التى أرادوها بثمن بخس فطلبت ثمنا غاليا . ودفعوا صاغرين . وخرجوا منها أشلاء .

تأليف : ابراهيم ادات

عرض وتلخيص : حسام الدين رشاد

السويس قلعة الأبطال التى طغى كبرياؤها على كل تطاول فحطمت الزيف وتصدت للغرور .

السويس الأبية التى أضافت فى « أكتوبر » صفحة أخرى مشرقة إلى كتاب التاريخ .

السويس الصامدة التى أبت فأحسنت فجاء بلاؤها مسك الختام .

لم تصلنى بعد أية تعليقات من القيادة الجنوبية . وافترضت أن يكون هناك احتمالان تفسيرا لذلك . الأول الالتزام بقرار وقف إطلاق النار . وفى هذه الحالة قد توقعت أن يجرى هناك قتال بمنطقة الحاجز الرواعى من أجل السيطرة على المنطقة التى تم تطهيرها وتوسيعها أما الاحتمال الثانى فهو الاستمرار فى تدمير الجيش الثالث وفى هذه الحالة أيضا فإنه ثمة ضرورة لعبور قوات إلى الضفة الشرقية خاصة بعد أن طلبت القيادة فى اليوم السابق (٢٣) دراسة مناطق عبور المصريين وعما إذا كان هناك جسر كامل . أو حتى جسر يمكن إقامته . على كل . فلقد أصدرت أوامرى بالقرب من منتصف ليلة ٢٤ أكتوبر بالتخطيط للقتال الغد .

اتصل جونين برئيس الأركان ليبلغه بأن أجهزة الدفاع من قوات ومعدات عند عيون موسى قوية ولا يجب لذلك محاولة احتلالها وأضاف ، ومن المحتمل أن تدخل السويس غدا إذا كانت المدينة خالية » .

احتلال السويس بشرط

وفى الواحدة والنصف صباحا اتصل فى نائب جونين – العقيد أورى – ليبلغنى بأن مهامى فى الغد هى تطهير قطاع مجموعة عملياتى واحتلال جميع مضاطب الحاجز الرواعى بقطاعى وقطع أنابيب المياه من الضفة الغربية وضواحى السويس عن الجيش الثالث بالضفة الشرقية واحتلال مدينة السويس ، بشرط ألا تكون سالينجراد » .

(وتقع سالينجراد بالاتحاد السوفيتى وقد دارت عليها أكبر معركة وقعت بين الروس والألمان بقيادة هتلر خسر فيها هتلر حوالى ١٧٥ ألف قتيل و ١٤٠ ألف أسير و ١٥٠٠ دبابة و ٦٥٠٠ مدفع و ٧٥٠ طائرة – وقد استغرقت ٧٩ يوما وانتهت بفوز ساحق للروس وأصبحت نقطة تحول فى تاريخ الحرب العالمية الثانية)

وطلبت معلومات جهاز المخابرات عن المدينة فجاءنى مطابقة تقريبا لما كنا نعرفه ومن بينها وجود كتيبة كوماندوز تسيطر على جزيرة ميناء بور إبراهيم فى جنوب قناة السويس وحوالى كتيبتى مشاة من قابول فرقتى ٤ ، ٦ التى انسحبت إلى المدينة كما عرفت أيضا أن الفرقة ١٩ نقلت إلى الضفة الشرقية سرية صواريخ مضادة للدبابات وهى التى تعاملت مع أرياه بعد الظهر . لم تكن المدينة إذن خالية . ولكن ما شاهدناه من انهيار للقوات المصرية وعمليات التطهير التى قمنا بها وإمكانات المدفعية جعلنى أفترض أنه لن تكون هناك صعوبات عند احتلال المدينة

أعداد سريع :

كانت أكبر مشكلة واجهتنى نحو الاستعداد السريع لشن الهجوم خاصة وأن وقف النار يوشك أن يسرى فى السابعة – هى بعثرة قوات المشاة بالحاجز الرواعى وبمعسكرات القبارة إلى شبه جزيرة كيريت وبعد هذه القوات عن الدبابات التى باتت ليلة الرابع والعشرين أمام السويس . وكان عدد دبابات مجموعة العمليات يبلغ تقريبا ١٧٥ دبابة أى حوالى ٦٠ دبابة بكل لواء وكان فى كل كتيبة تقريبا سرية مشاة مدرعة عملت على حاملات مدرعة أو شبه محترات . كما بلغت مدفعيتنا حوالى كتيبتين عملت فى « حافيت » وكتيبة أخرى متوسطة عملت من الضفة الشرقية . وأصدرت جماعة القيادة الأمامية بالقوات أوامرها بتحرك قوات المشاة فورا إلى الأنوية ونظرا لأن قرار وقف اطلاق النيران يوشك أن يطبق فى السابعة فقد قررت بدء العمل عند الفجر وألا أنتظر وصول قوات المشاة على أن تلتحق هذه القوات بنا عند اقتحام المدينة وفى الخامسة والثلث أعطيت الأمر بالتحرك على أن تبدأ الهجوم بقصف جوى مكثف وقذائف مدفعى مركز وتحت ستار هذا القصف تتقدم الألوية فيتقدم إرياه مسافة ثمانية كم ويطهر معسكرات الجيش المصرى شمال السويس ويستعد للاقتحام عند مدخل المدينة أما جباى فيتقدم غرب المدينة ويحتل المنطقة الصناعية ويتقدم إلى خليج السويس وحتى رصيف ميناء البترول . وتقوم قوات المستوى الثانى التابع للواء بالاختراق داخل بور إبراهيم وبالنسبة لجباى فقد اسندت له مهمة تطهير الحاجز الرواعى (٢٤ كم) مركزا على الجنوب على أن يستعد لاحتلال رأس جسر بالضفة الشرقية . ووجدت كتائب المشاة صعوبات بالغة فى التقدم حيث إن المنطقة لم تطهر بعد . وقد زودت بعضها تمدرعات العدو بعد أن وضعت عليها اعلام ولوحات معدنية مصرية إلا أنها وهى فى طريقها المحررت فيها الأعلام وقام العدو باطلاق صواريخ ساجر عليها وتوقف تقدمها

لم يستسلموا :

وحتى الثامنة والنصف ص تقدم أرياه إلى مداخل المدينة معظمها المعسكر نلو الآخر . كانت المقاومة بسيطة إلا أنه أصيبت له دبابتان نتيجة لكمين من صواريخ ساجر . واستعد لاقتحام المدينة منتظرا وصول قوات المشاة . كذلك دخل جباى المنطقة الصناعية ولم يواجه أية مقاومة للعدو كما قامت سرية استطلاع له بالعبور إلى شاطىء ترعة المياه الحلوة واحتلت بقعة ميان عند مداخل المدينة . كما اشتعلت المدفعية النيران فى عدد من صهاريج الوقود تعامل التكرير وأعاقته سحب الدخان عن التقدم فأوقف المدفعية وعبرت كتيبة عامير على الجسر الصغير ووصلت إلى ميناء البترول . واستولى جباى على مفترق الطرق الواقعة غرب السويس وانتظر أرياه طويلا وصول المشاة ولما تأخر وصولهم اقترح على أن تقوم كتيبة دبابات تاحوم بالاختراق أولا حيث تضم سرايا دبابات ومشاة مدرعة ، وبعدها تدخل قوات مشاة يوساى ثم قوات حيدان . ووافقت .

وألقيت على القوات المهاجمة مهمة السيطرة على مفارق الطرق الثلاثة : جسر ترعة المياه ، جامع الأربعين والمشلث . وتقرر تأجيل الاقتحام نصف ساعة حتى يصدر يوساى الأمر ويتلقى

ابلغى ارياه : نحن نواجه مقاومة رسوف التوقف.

واسهرت عليا القنابل اليدوية من فوق سطح المنازل

وعلى الفور امر يوساى بمغادرة المدرعات والاحتماء بقسم الأربعين

قواته . وفى التاسعة والنصف ابلغى ارياه « أن الصورة لا تزال غير واضحة فهناك دبابات ومدافع وصواريخ مضادة للدبابات بين المنازل . نحن نواجه مقاومة رسوف أتوقف وأوجه ضربة مدفعية ، وإذا نجحنا بعد ذلك يبلغنى بنفس الشىء فى ذلك الوقت اتصل فى تنكا ليبلغنى بتقدمه وتطهيره للحاجز الزراعى وأنه يتبادل النيران مع الضفة الشرقية ولديه مصابون كثيرون وعندما تقدم إلى « حاقيت ٨٨ » أبلغنى مرة أخرى : « إنهم لم يستسلموا ولا يزالون يحاربون » فشجعته على مواصلة تقدمه جريا لمساعدة القوات المهاجمة .

مقاومة بطولية :

وبدأ الاختراق فى العاشرة والنصف صباحا (٢٤) – وكان على رأس القوات المقتحمة كتيبة ناحوم التى تضم ٢١ دبابة و٧ مدرعات و٨ مجنزرات واستمر تقدمها (داخل المدينة إلى مسافة ٢.٥ كم داخل المنطقة السكنية حيث بلغ ارتفاع المنازل إلى ستة وسبعة طوابق . وما إن وصلت إلى تقاطع الأربعين حتى فتحت نيران مروعة . فى دفعة واحدة ووقت واحد انطلقت علينا نيران المدفعية المباشرة وتلتها الصواريخ المضادة للدبابات واسهرت علينا أعداد هائلة من القنابل اليدوية من النوافذ وأسطح المنازل . كما انقض علينا المقاتلون المصريون من أبواب المنازل ومن كل حدب وصوب برشاشاتهم . وفى غضون دقائق كان قد سقط الكثير من القادة ولم يبق من ضباط الكتيبة سوى أربعة فقط . وبلغت خسائر الكتيبة حوالى ١٨ قتيلا و ٤٠ جريحا . ولم تنج من المركبات إلا القليل فرت إلى الحوارى الجانبية وخرجت إلى طريق « سريج ٩٥ » حيث توقفت لإجلاء الجرحى والمصابين . واستمر المصريون فى إطلاق النيران عليهم من جميع الاتجاهات . كانت الفجوة بين كتيبة ناحوم وبين كتيبة يوساى عند الذرعة الخلوة حوالى ٤٠٠ متر وما إن وصلت كتيبة يوساى إلى تقاطع الأربعين حتى استطيلها على الفور جحيم من النيران أسفر عن مقتل ثلاثة جنود وجرح الكثيرين كان من بينهم يوساى نفسه حيث أصاب صاروخ مضاد مدرعته وأصيب هو فى قدمه . وأمر يوساى بمغادرة المركبات على الفور والدخول إلى البيوت المجاورة وتولى فى ذلك الوقت قيادة الكتيبة قائد سرية شاب يدعى دودو الذى أمر باحتلال قسم الشرطة المكون من طابقين الذى يوجد على بعد ٢٠٠ متر جنوب الأربعين .

وعلى الفور تم إدخال المصابين إلى المبنى بالطابق الأول وصعد المقاتلون إلى الطابق الثانى . كانت كمية الذخيرة قد أوشكت على النفاد كما أن كمية المياه الموجودة معهم كانت قليلة . وكان قسم الشرطة محاطا بالمنازل بعضها من أربعة طوابق ، والأخرى من خمسة ومن فوقها أحد القناصة المصريون يطلقون النيران علينا طوال اليوم كما كانوا يلقون بالقنابل اليدوية كذلك قاموا بمحاولات لاقتحام قسم الشرطة . وظل يوساى فاقدا لوعيه طوال اليوم . وتلقت القوات المحاصرة وعودا لإنقاذهم ومرت الساعة تلو الأخرى ولم تأت طوابير المدرعات التى ستنقذهم وظلت طلقات المدفعية التى انطلقت حول مبنى الشرطة هى وسيلة الإنقاذ الوحيدة التى حافظت عليهم طوال اليوم .

وكانت القوة التالية ليوساى هى قوة حيدای . وما إن عبرت هذه القوة القناة حتى فتحت عليها النيران هى الأخرى فأمر حيدای قواته بالاعتصام بالمنازل القريبة . وخلال دقائق كانت جماعة القيادة الأمامية بالكامل قد أصيبت بل إن نائب ارياه قد أصيب برصاصة فى رأسه وأحيل للخلف . أكثر من ذلك . فقد هربت مجنزرة محاربات اللواء التى كانت ترافقه إلى إحدى الحارات . ودخلت بضباطها التسعة وضباط الصف الأخرين فى عداد المفقودين ولم يعثر لها على أثر . وأعطيت قوة حيدای سرية استطلاع لواء إرياه التى تقدمت على سبع زلدات . وما إن دخلت إلى مرمى النيران – حتى فاجأتها هى الأخرى النيران المصرية وخلال ثوان – استطاع المصريون اصابة ١٦ مقاتلا وأحيلت هى الأخرى للخلف وهكذا اتضحت الصورة أمام أرياه . كتيبة ناحوم محاصرة على محور « سريج » ، كتيبة يوساى على تقاطع الأربعين حيث ومحاصرة . قوة حيدای بالذرعة الحلوة محاصرة هى الأخرى . ولم تستطع قواتنا احتلال هذه الطرق فقط بل حوصرت وبينها حوالى ثمانين جريحا .

محاولات إنقاذ فاشلة :

خرجت بصورة كئيبة من التقارير التى تلقيتها فى الحادية عشرة صباحا . وعلى الفور طلبت قيادة القوات الجوية إلا أن إرياه لم يكن متأكدا من أماكن القوات المحاصرة ، فطرنا فصف بور إبراهيم وأجزاء أخرى من المدينة ودفع كتيبة مشاة مدرعة إلى شارع سراج بالمدينة لتنظم إلى أرياه لتخفيف الضغط عليه . وحاولت الكتيبة احتلال فندق كليوباترة والمنازل العالية بوسط المدينة من أجل اللحاق بيوساى إلا أنها هى الأخرى فشلت وأصيب من الكتيبة ٢٣ مقاتلا إذ أن العدو لم يجد صعوبة فى إصابة جنود مجنزرات مفتوحة واضطرت الكتيبة إلى القرار إلى التقاطع والعودة إلى « يوخان » خارج ميدان القتال . هنا أدركت أننا نوشك أن نحيد عن أمر القيادة القائل باحتلال السويس ما لم نكن سنالينجراد . وأمرت أرياه ألا يدخل قوات أخرى إلى المدينة

هذا كان ثمن دخولنا السويس قادما.

ما لم تكن بغرض إنقاذ المحاصرين ، وقرر أرياه معاودة المحاولة – فأمر كتيبة يتسحاق للانضمام إلى المظليين عن طريق سراج لكنها فور أن عبرت الترعة الحلوة حتى انطلقت عليها الصواريخ المضادة للدبابات فأصابت دبابة يتسحاق نفسه وأصيب اسحاق . وعادت الكتيبة من حيث أتت . وفكرت فى محاولة أخرى ، فأمرت نتكا بأن يرسل كتيبة استطلاع إلميران الميكنة ويدخلها المدينة من اتجاه آخر ، من شمال شرق المدينة للحاق بقوة يوساى وإنقاذها – وبالفعل تلق إيران أمرا من نتكا فأنهى قتاله بالحاجز الزراعى الساعة الثانية عشرة وتقدم فى الثانية على محور عيتساه وتوجه هو إلى محور سراج ومعه ما يقرب من ١٥٠ جندى تحملهم تسع مدرعات وخمس دبابات . ظل إيران يطلق النيران من جميع الاتجاهات بما فيها من أعلى وعلى محور سراج أطلق المصريون نيرانهم عليه ، وأدى ذلك إلى وقوع إصابات فى قواته ، وهناك وجد جنود جيبداى ، حيث دلوه على أماكن المصابين وأخذوا يحملون المصابين على مدرعاته وكان عددهم ستين مصابا – وبقى ٦ جرحى لم يجدوا لهم مكانا – وشقت القوة طريقها إلى الخارج وقربا جدا من السويس على محور سراج – عملت سرية أطباء أرياه حيث نصبت مستشفى ميدانيا بالاشتراك مع سرية أطباء دوفيق – تجمع فيها حوالى ١٤٠ جريحا.

ظل الموقف كما كان عليه منذ الصباح وحتى قبيل حلول الظلام بنصف ساعة . قوات كبيرة محاصرة داخل السويس . بعضها محاصر لا يقدر على الحركة . والآخر قادر على الحركة لكنه مكبل فى مكانه . بحيث أن بقائهم موقف الدبابات داخل المدينة مع حلول الظلام . كان لابد من قرار يخرجنا من هذا المأزق . لذلك قررت إخراج ما يمكن إخراجه من القوات وأصدرت أوامرى للقادة الألوية بإخراج الكتائب الموجودة بمحور « بوخان » وهى كتائب أهود وبروخى وتاحوم وعامير . بينما تثبت داخل المدينة كتيبة حيبداى وكتيبة يوساى محاصرتان . وساءلت نفسى : أيصدر لهم الأمر بالفرار بقوتهم الذاتية ، بالتسلل ؟ لا . . إن ذلك يطوى على خطر جسيم خاصة وأن لديهم مصابين أخرى مرة أخرى بالمدرعات لإنقاذهم ؟ . . لا ، إن احتراق منطقة سكنية ليلا عملية بالغة التعقيد وبينما أنا فى هذا الوضع ، تصلنى معلومات عن قيام العدو بتنظيم الطرق ووضع أسلحة مضادة للدبابات . فرأيت من الأفضل أن يحاولوا التسلل ليلا . وأصدرت أوامرى إلى أرياه بذلك . لقد كانت عملية التسلل بالنسبة لحيبداى سهلة نسبيا حيث كان قريبا جدا من خط قواتنا على بعد ٢ كم .

وكما تقدم فقد تمكن من إخلاء مصابيه حتى الرابعة ، وظل يرتب نفسه للفرار طوال النهار ومع حلول الظلام بدأ تسلله واستطاع فى النهاية الفرار والوصول إلى خطوطنا فى الثامنة والنصف مساء .

أما يوساى فقد كانت قواته على بعد ٤ كم من خطوطنا وكان قوامها ٩٠ فردا منهم ٢٣ جريحا . وظل يوساى طوال الوقت قاقدا وعيه ، ولم ير نائبه دودو الذى تولى قيادة القوة أية أمل فى الخلاص نظرا لأنه على مسافة بعيدة بالعمق . ورأى أن الأمل الوحيد هو الانتظار حتى الصباح . حينئذ تأتى المدرعات لإنقاذه . وفشلت كل محاولات إقناعه بالتسلل ، فى ذلك الوقت أفاق يوساى وأيد عملية التسلل وأصدر أرياه أمره بالتسلل . . وفى الثامنة والنصف مساء خرجت القوة فى طريقها شمالا تحت ستار المدفعية ، وكانت تحمل نقالتين عليهما الجرحى ، والبعض الآخر يتوكأ على زملائه ودخلوا إلى حوارى موازية لشارع سراج ، وفى طريقهم مروا بتجمعات عديدة من المصريين لم تطلق النيران عليهم وفى الخامسة صباحا وصلوا إلى كتيبة يتسحاق . وهنا فقط تنفس جميع القادة الصعداء بعد أن احتبست أنفاسهم طوال مسيرتهم فقد كان الثمن باهظا فى قتال السويس حيث وصل إلى ٨٠ قتيلا و ١٢٠ جريحا .

هزيمة أخرى :

فى الوقت الذى كانت تحارب فيه قوات جباى وأرياه داخل السويس ، كان القتال يدور بين القوات المصرية بالحاجز الزراعى جنوبا وبين كتائب نتكا التى حاولت احتلال الحاجز وتطهير المنطقة الممتدة من البحيرات المرة حتى ضواحى السويس فقد تجمعت جماعة القيادة الأمامية التابعة لنتكا وقواته فى مطار الشلوفة قريبا جدا من الحاجز الزراعى وفى المنطقة التى ظنا أنها طهرت وفجأة انطلقت عليهم دفعات متتالية من نيران الأسلحة الأتوماتيكية والصواريخ المضادة للدبابات . وخلال لحوان كان قد أصيب نائب أرياه ونصف ضباط الأركان . لقد عكس هذا الحادث المشاكل التى واجهها نتكا فى الحاجز الزراعى . حيث كان يظهر فيه المرة تلو الأخرى الجنود المصريون وكان بعضهم يختبىء وراء الأشجار ، وبعضهم عديوا سباحة من شرق القناة وتسللوا إلى المناطق التى كنا قد طهرناها ، والبعض الآخر اختبأ فى غرف العمليات التى لم نكتشفها فى مسحنا السريع للمنطقة . فأصيبت نتيجة لذلك مدرعات قوة « حاروف » ومدرعات « بانا » – وقد دمرنا بعض الدبابات التى اختبأت بالمنطقة الزراعية ، إلا أن تطهيرها من الجماعات المصرية المتوغلة كان مستحيلا الأمر الذى استلزم الحذر والصبر ، وقد عكس كل هذا ، الرائد بريك ، قائد السرية الوحيدة التى تبقت من كتيبة عساف فى الثامن من أكتوبر ، حينما روى قصة قتاله بالحاجز حيث أصابت دبابة مصرية كانت تسير على مسافة ٤٠٠ متر منه دبابته فأشعلت فيها النيران واضطر إلى استبدال دبابته بدبابة أخرى وكانت هذه الدبابة هى السابعة التى ركبها منذ الحرب بعد تدمير دباباته الست .

خط فى الغرب :

وطوال هذا اليوم ، كانت مجموعة عمليات ماجين تحارب على قطاع عريض . واستطاعت فى الصباح تطهير ميناء الأدبية بعد تعزيزها بلواء بولا الميكانيكى ، وتمكنت فى نهاية اليوم من إقامة الخط الغربى لنا الذى امتد من محور « فيامين » وحتى الكيلو ١٠١ . وذلك بعد تلقيها أيضا تعزيزات تم إسقاطها على جبل عتاقة ، وكان الشرس قتال خاضته ، هو ذلك الذى دار بمعسكرات عجرود الذى عاونتها فيه طائراتنا الحربية . وبذلك وضع ماجين الخط الغربى لنا .

أخيرا . . وقف النار :

الآن انضمت قوات ماجين إلى قائمة القوات التى أوقفت إطلاق النيران من قبل ، وهى قوات سامون وجرانيت وشارون وكان علينا أن نستعد لاستقبال مراقب الأمم المتحدة لوضع « خطوط » وقف النيران وفى نفس الوقت أن نكافة الاستعداد فى حالة ما إذا استأنف العدو القتال وفى صباح الخامس والعشرين من أكتوبر وصل مراقبو الأمم المتحدة وبوصولهم استقر الأمر ووقف إطلاق النيران إلا من بعض الأماكن ووقفت معه حرب دامت تسعة عشر يوما طوالا ! قطعت فيها مجموعة عملياتى شوطا كبيرا من بالوظة بالضفة الشرقية ، إلى السويس بالضفة الغربية .

إنتهت